مجلة منتدى الأستاذ
المجلد: 21 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2025 الصفحات 524- 540

خطاب الأزمة/ المحنة الوطنية في الرواية الجزائرية المعاصرة من الواقع إلى التخييل ومن الفكرة إلى التوظيف (قراءة توصيفية في المتن الروائي بين تأزم الواقع وعنف الخطاب)

Discourse of Crisis/National Ordeal in the Contemporary Algerian Novel, From Reality to Imagination and from Idea to Employment (a descriptive reading of the nineties text between the deterioration of reality and the violence of discourse)

أحلام مناصرية[1]،*

[1] جامعة الحاج لخضر (باتنة 1)، *Ahlem.menasria@univ-batna.dz*

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة.

تاريخ الإرسال: 2025/03/08 تاريخ القبول: 2025/10/01

الكلمات المفتاحية:
الأزمة الوطنية؛
الرواية الجزائرية؛
تردي الواقع؛
التخييل؛
التجليات؛

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى رصد خطاب الأزمة/المحنة الوطنية في الرواية الجزائرية المعاصرة، من واقع العشرية السوداء إلى التخييل السردي. ويعتمد منهجاً توصيفياً، يفكك إشكالية الاصطلاح (رواية المحنة، العشرية السوداء، الاستعجالية) ويحلل تجلياتها في روايات وطار، الأعرج، بوجدرة.

وتتمحور التساؤلات حول انتقال الواقع المتردي إلى متخيل هش، ودور التجريب في مواجهة سطوة الراهن التراجيدي.

كما يبرز خصائصها: التعدد اللغوي، تكرار العنف، هشاشة المتخيل، والتمرد السردي.

Keywords:
National crisis, literature of ordeal, Algerian novel, deterioration of reality, violence, imagination,

ABSTRACT:

The study tracks the discourse of national crisis/ordeal in contemporary Algerian fiction, from the Black Decade's reality to narrative imagination.

It employs a descriptive methodology, deconstructing terminological issues (oreal novel, Black Decade, hasty novel) and analyzing manifestations in works by Wat'ar, al-A'raj, and Bougdoura.

Central questions probe the transition from degraded reality to fragile fiction, and experimentation's role against tragic immediacy.

It highlights characteristics: multilingualism, violence recurrence, imaginative fragility, and narrative rebellion.

* أحلام مناصرية.

مقدّمة:

شهد الأدب الجزائري المعاصر تغييرات ملحوظة متأثرا بالمستجدات الطارئة على الصعيد السياسي والاجتماعي والتاريخي، ومن الطبيعي أن تنعكس على الأدب وتؤثر فيه، وتكسبه من الخصائص والمميزات الشيء الكثير باعتباره وريثا شرعيا لها، ولكونه مرآة عاكسة لمجرياتها، إذ عايش وترجم الواقع المؤلم المعيش، وتجلى ذلك في الأعمال الأدبية التي صورت وبحق الوجه الآخر للمحنة من خلال بروز وتواتر تيمة الأزمة الوطنية التي أصبحت طاغية على نتاجات حقبة العشرية السوداء وما تلاها، كما جعلت من أقلام المبدعين الجزائريين سيالة لرصد القضايا التي تمخضت عنها الأزمة فأبحروا في دروب الإبداع الأدبي الشعري منه والنثري، بيد أن النثري منه والروائي خاصة كان مستفحلا أكثر لقدرته على تصوير ونقل ملامح المجتمع ومستجدات الحياة باعتبار صلته الوطيدة بقضايا الحياة وتطلعه إلى مواكب مستجداتها، الأمر الذي دفعه لتبني أشكالا تعبيرية جديدة تشكلت بدورها وفق متغيرات الراهن ومعطياته لتكون أكثر قدرة على تغطية إشكالاته وملابساته وتناقضاته، فجاء بشكل جديد أفرزته التغيرات الاجتماعية والتحولات السياسية، وبأنماط لا متناهية من الموضوعات والتقنيات والأساليب والفنيات التي ساعدت بدورها في بلورة الفن الروائي الجديد في علاقته بالأزمة الوطنية من خلال الانفتاح على فضاءات الموت، الوحشية، المحنة، المأساوية...وهي فضاءات استهوت الكثير من الأقلام الروائية بفعل معايشتها لهذا الواقع المرير الذي أفرزها أو لكونها جزءا منه رغبة في تسجيل أحداثه أو من باب التعريف بالقضية وإسماع صوتها، وتطالعنا في هذا الصدد الكثير من النماذج الروائية التي نقلت المأساة الوطنية في قالب فني وإبداعي، وعكست وبحق الراهن الجزائري بؤرة الفتنة وموطن البركان لما استحوذ عليه من صراع وسوداوية وهمجية، وتمظهرت بسمات جمالية دالة تشد إليها اهتمام القراء والنقاد على حد سواء، وتغريهم بمقاربتها ورصدها باعتبارها تمثل شكلا أدبيا جديدا أطلق عليه تسمية رواية المحنة، ورواية العشرية السوداء ربما لأنه يتخذ من تيارات الأزمة المستعصية، ومظاهر المحنة المتشعبة، ومناخات المأساة المحتدمة سؤالا مركزيا لمتنه الحكائي الذي بدأ يأخذ أهميته في خريطة الإبداع الأدبي في الجزائر.

ومثلما أسالت الأزمة وأحداث العشرية السوداء مداد المبدعين عامة والروائيين منهم خاصة، وتولد عنها نتاج أدبي روائي مختلف في مسماه فإننا سنتوقف عنده بالدراسة والبحث بدءا بإشكالية الاصطلاح ثم التعريج على مفهومه وأسباب ظهوره لنتوصل فيما بعد إلى الوقوف عند بعض النتاجات الروائية رغبة في استنطاقها وتسليط الضوء على تجليات الأزمة/ المحنة الوطنية في روايات كتبت خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر أو بعدها واتخذت منها موضوعا لها من خلال بيان الخصائص الفنية والموضوعية التي وسمتها.

1/ إشكالية مصطلح أدب الأزمة/ المحنة في الساحة الإبداعية الأدبية والنقدية:

إن ما يصطلح عليه برواية الأزمة اصطلاح هلامي يشوبه الغموض والضبابية ويعتريه اللبس والاختلاف "فهذا الشيء الهلامي الأخطبوطي الذي نعلمه ونجهله، وربما نعلمه جيدا إلى درجة أننا نجهله كثيرا والذي نسميه رواية الأزمة"[1]، وهي من ذلك الصنف الذي نعتقد أننا محيطون بشتى جوانبه وبأدق تفاصيله، لكننا نجد عسرا وصعوبة إذا ما أتينا لتحديد المصطلح تحديدا تقنيا يمنع تداخله مع غيره من المسميات ويحول دون تسرب ما ليس منه إليه.

وعليه فإن الحديث عن مصطلح (أدب/ رواية- المحنة/ الأزمة) يثير إشكالات كبيرة لدى المهتمين بالشأن الإبداعي والنقدي على حد سواء من فاتحة السؤال حول مشروعيتها إلى تداعيات الأسئلة حول مسماها والاصطلاح الأنسب الذي يطلق عليها، إذ تعددت المصطلحات التي تسم هذا النوع من الكتابة والذي يرتبط على مستوى مضامينه بفترة التسعينات من القرن العشرين مما أوقع المقاربات النقدية التي بدلا من أن تنشغل بإبراز الجمالية النصية والخصائص المضمونية، والعمل على ملامسة فحواها واكتشاف سياقاتها بطريقة فنية هادفة، انصرفت قبلا لإشكالية الاصطلاح بسبب فوضى التسمية التي رافقتها ولا أدل على ذلك من تداول المسميات التالية: أدب المحنة ، أدب الأزمة الوطنية، أدب العشرية السوداء، أدب الفتنة، أدب عشرية الدم، الأدب الاستعجالي، أدب الإنعاش.

أ/ التأسيس المفاهيمي (مفاهيم واصطلاحات):

ويعود سبب تعدد المسميات إلى ارتباط الأدب بالأحداث الطارئة خلال فترة التسعينيات والتي تعددت مسمياتها هي الأخرى، ومن الطبيعي أن تنعكس على الأدب الذي يسمها ويصورها اتباعا، كل هذا آل إلى تعدد المصطلحات التي تنعت بها هذه الكتابة الإبداعية، فقد أطلقوا عليها" عدة تسميات منها: الرواية الاستعجالية، رواية الأزمة، رواية العشرية السوداء، رواية الشباب، رواية ثورة العنف، محكيات الإرهاب..."[2]، وعلى كل فلكل مسمى مبرره وسنحاول التعريج على كل مصطلح فيما يلي:

-رواية الأزمة: لأنها تتخذ من الأزمة موضوعا لها، ويطلق على كل نتاج روائي استطاع أن يجسد كل المظاهر السائدة خلال فترة التسعينيات من القرن الماضي من خلال نقلها من كونها تجربة واقعية إلى كونها تجربة أدبية إبداعية روائية يمتزج فيها الواقعي بالتخيلي، فتنتج نصوصا "يمكن أن تقرأ ضمن هذا السياق التاريخي الذي عاشته الجزائر، أي إن هناك علاقة عضوية بالراهن وأسئلته المتعددة التي طرحت ككاتب وإنسان يعيش داخل تفاعلات الوضع الراهن مستغلا الجانب الكابوسي الذي يعطي بطبيعة الحال رؤية متشائمة"[3].

-رواية العشرية السوداء: بالنظر إلى ظهورها تزامنا مع بداية الحقبة والسير معها جنبا إلى جنب

- رواية الشباب: لأنها تزامنت مع التجارب الروائية الأولى لرعيل جديد من الروائيين الجزائريين؛ حيث "مثلت فترة التسعينات انطلاقة حقيقية للرواية المعاصرة في الجزائر لجيل من الشاب الذي كتب رواية لأول مرة في ظروف اجتماعية وأمنية متأزمة، عالجت هذه الروايات صورة الموت اليومي والدمار الذي طال الوطن"[4].

- رواية العنف/محكيات الإرهاب: لأنها تمحورت حولت هذه التيمات التي تشكل القسط الأكبر من محكي المنجز الروائي آنذاك والمفروض والطبيعي أن يتخذ تسميته منها.

- رواية الواقع: لأن الواقع متأزم بحسب أحداث الحقبة، والرواية الجزائرية لم تحلق خارج السرب، ولم تخرج عن دائرة الإفصاح عن الجرح، شأنها في ذلك شأن الكتابة الروائية عامة، والتي يعرفها كولن ولسن بأنه "كتابة تعتمد رسم التأزم ثم حل هذه الأزمة من أجل إشباع الشعور بالحرية"[5]، ففيها يختلط الواقع الخارجي بالتخيلي وكثيرا ما يتطابقان من أجل لملمة الشتات وصهره في بوتقة الفن الروائي.

– رواية الحرب: من منطلق أن الرواية ترجمة لمسائل الجيل، والجيل يواجه حربا، والحرب لها سبل للمواجهة إما بالمشاركة الفعلية أو ترجمة مجرياتها ومعالجة "انكسار البنيات الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية..."[6]، خاصة أن الحرب أهلية وانطلقت سياسية، وأعربت عن نفسها اجتماعيا، واتضحت في أوضح وجوهها اقتصاديا وثقافية وصورت روائيا.

– الرواية الجزائر التسعينية: فقد أبدعها روائيون جزائريون خلال تسعينيات القرن الماضي بعدما أحاطت بهم الأزمة وأغرقتهم في بحر الأحداث الدامية من كل جانب، أحداث لم يجدوا لها مثيلا في باقي البقاع، فكتبوا عنها رواية خاصة بالجزائر، رواية متفردة تفرد وخصوصية الأحداث التي تعيشها.

– الرواية الاستعجالية: مسمى تردد في الأوساط الفرنكوفونية ومرده لارتباط هذه الرواية بالأحداث الطارئة على صعيد الحياة السياسية والاجتماعية، وكذا لوقوع كتابها في نوع من التسرع والانسياق وراء الانزلاقات الأمنية والأحداث المهولة التي شهدتها الفترة مما جعل أعمالهم أقرب ما تكون إلى التصوير الفوتوغرافي، وبالتالي فإن مسمى الاستعجالية مرده إلى "مسارعة الكتاب إلى التقاط الصور"[7] لما يجري والذي لم يكن محفزا للإبداع بقدر ما كان مدعاة للنقل والتأريخ للراهن الجزائري الذي تحول إلى خلفية لمعظم الأحداث الروائية، وبالتالي فإن مسمى الرواية الاستعجالية جاء نتيجة للظروف والأحداث المتسارعة والمفاجئة التي طبعت الحياة في المجتمع الجزائري مما تطلب أدبا ورواية استعجالية تحاكيها وتؤرخ لها، ويعود هذا المسمى إلى المقاربات النقدية الفرانكفونية –مثلما سبق وأشرنا– بينما تعود باقي المصطلحات الأخرى أدب المحنة/ الأزمة... وغيرها مما يندرج في ذات السياق يعود إلى المقاربات النقدية والتغطيات الصحفية العربية.

حقا لقد تتعدد المسميات والمعنى واحد فكلها تشترك في مدلول واحد وهو الخطاب الأدبي/ الروائي الذي استطاع تجسيد التناقضات والأيديولوجيات السائدة في فترة التسعينات، وأن يعكس هوية المجتمع الجزائري المسكون بهواجس الموت والعنف والإرهاب...ويتطلع إلى البحث عن جذور الأزمة وفضح الممارسات التي أوصلت إليها.

ب/ بعض المواقف من إشكالية الاصطلاح:

يعد الروائي "واسيني الأعرج" من الذين عارضوا هذا المصطلح (أدب المحنة)، ومبرره في ذلك أن وظيفة الأدب هي التصوير والإحاطة بكل القضايا الراهنة بغض النظر عن الحدود المكانية والأطر الزمانية، ومسمى المحنة لا يقتصر على وضع عاشه الشعب الجزائري خلال حقبة معينة، كما أن مهمة الأدب لا تقتصر على التوثيق لها، بل تأخذ بعدا أوسع ومجالا أشمل لأنه بها يغدو تجربة فنية وإبداعية متميزة ليست بحاجة إلى تخصيصها بمسمى ما.

وفي ذات التوجه نلفي الروائي "طاهر وطار" الذي رفض هو الآخر مسمى (الأدب الاستعجالي) جملة وتفصيلا خاصة إذا كان القصد منه التهافت والتسرع في الطرح والعرض والتصوير بقدر تسارع الأحداث، ويرى أن أدب التسعينيات اقتضته الظروف وفرضته الحاجة مثلما فرضت مواضيع الاستعمار والثورة وغيرهما، حيث كان الوطن يتخبط بين غياهب السياسة والأيديولوجية، ولم تكد تخلو نصوصه من التعبير عن هول الأزمة، ولذلك فالأنسب له اصطلاحا (أدب الأزمة) تبعا لتيماته، لا (الاستعجالي) تبعا لارتباطه بعامل الزمن ووتيرته.

لم يكن الاختلاف متعلقا بأهمية هذا اللون التعبيري بقدر ما كان قائما بسبب مسماه واصطلاحه، ولئن تعدد المسميات فإنه فرض وجوده في ساحة الإبداع الأدبي عموما والروائي منه خصوصا لأنه كان كفيلا بتغطية الراهن الجزائري خلال حقبة زمنية حرجة عد الإبداع فيه جرأة ما بعدها جرأة. وكانت من أهم مخلفات الحداثة على مستوى الخطاب وعلى مستوى القيمة الفنية.

2/ خطاب المحنة/ الأزمة الوطنية في النتاج الروائي الجزائري:

أ/ مفهوم رواية المحنة/ الأزمة في الأدب الجزائري:

هي الرواية التي ظهرت في الجزائر خلال فترة التسعينات وما تلاها، وتنعت بهذا المسمى مثلما سبق وأشرنا لأنها" اتخذت من المأساة الجزائرية تيمة مهيمنة، ومن أحداث الحرب الأهلية غير المعلنة بؤرة للسرد تتوالد منها أسئلة النص"[8]، ولئن كنا قد اخترنا في هذا الطرح مسمى رواية المحنة فإن مرد ذلك لحمولته الدلالية ولكثرة شيوعه واستعماله في الاصطلاح على هذا النوع من الرواية، والذي صاحب ظهوره هو الآخر فوضى اصطلاحية- كما سبق وأشرنا- كتلك التي صاحبت ظهور أي جنس أدبي يختص على مستوى مضامينه بهذه الحقبة، وربما الأمر يكون أكثر جدلا في مجال الفن الروائي لكثرة الإقبال على الإبداع في إطاره فضلا عن قابليته لاستيعاب هذا النوع من المواضيع.

إن رواية المحنة هي ذلك الزخم الذي فاضت به قرائح الروائيين الجزائريين في مواكبتهم لحيثيات المأساة الوطنية وطقوسها الدموية، للمآسي والآلام التي عايشوها وشغلتهم وأرقت تفكيرهم وأسالت مدادهم باعتبار أنهم يمثلون شريحة من شرائح مثقفي المجتمع والذين لم يسلموا من العنف والاضطهاد ولا من تجرع مرارة الأزمة بكل مظاهرها، بيد أنهم لم يستسلموا لمجرياتها عاشوها بكل تفاصيلها وحاولوا الوقف في وجهه مفتعليها بالمرصاد من خلال كشف الحقيقة وتعرية الواقع وإسماع صوت القضية على محك الرواية التي لاقت رواجا كبيرا إبداعا ونقدا ومقروئية، والتي غلب على هذا الصنف منها طابع الحزن والمأساوية تارة، وطابع النقد والثورة على الوضع تارة أخرى، فأصبحت تعج بالمشاهد الدامية التي خطها روائيون ترصد بهم أو بأهلهم الموت في كل وقت وحين، فلم يجدوا سبيلا للملمة شتاتهم الفكري وملء الفراغ الثقافي وفك الصراع النفسي ومداواة الجراح الغائرة إلا بالقلم، هكذا تولدت رواية المحنة التي كانت إرهاصاتها تزامنا مع المأساة الوطنية واستمرت إلى ما بعدها ودارت رحاها بين أقلام روائية أصبحت فيما بعد في سماء الأدب الجزائري كواسيني الأعرج والطاهر وطار وأحلام مستغانمي ... وغيرهم ممن كانوا غيورين على وطنهم آخذين على عاتقهم مهمة تصوير المشهد الوطني والبحث عن متنفس له، أو الذود عنه باعتبارهم لسان حاله، على هذا النحو خاضت غمار التأسيس فالتأصيل ثم إثبات التميز واكتساب الخصوصية في ظل الحداثة الأدبية وما بعدها.

ب/ أسباب ظهور رواية المحنة/ الأزمة في الأدب الجزائري:

ويلخص الباحث "عبد الحميد هيمة" أسباب الكتابة في أدب المأساة -حسب اصطلاحه المفضل- في عدة نقاط وهي:[9]

-الكتابة عن موضوع المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية مغامرة فيها الكثير من الجرأة لما يشوب الموضوع من غموض وعدم وضوح، وبالتالي فهو يمثل سلطة إغراء ومصدر غواية لارتياد آفاقها البكر وخوض غمار تفاصيلها الخارقة.

-صعوبة مواجهة الذات على مستوى الممارسة النقدية وتحري الموضوعية التامة ذلك أن كاتبها ابن جلدة هذا المجتمع ومن الصعوبة بما كان أن يمتنع عن الكتابة فيها رغم صعوبة التحلي بالموضوعية والتزام الحياد.

-جل الأعمال الإبداعية الأدبية الشعرية منها والنثرية التي تناولت المأساة الوطنية لم ترتق إلى أن تكون مساءلة شاملة وافية وواعية للظاهرة في مجملها.

-اختلاف المسميات التي أطلقت على هذا الصنف من الكتابة وتداخله مع مواضيع أخرى لدى بعض الروائيين وعدم إفراد له متون روائية مخصصة.

3/ الرواية الجزائرية المعاصرة من محنة الكتابة إلى محنة الوطن:

كانت بدايات الفن الروائي في الجزائر متأخرة زمنيا عن نظيره المغاربي والعربي والغربي، كما كانت محتشمة؛ حيث ظل الصوت الروائي خافتا في الساحة الأدبية خاصة ما كتب منه باللغة العربية، وكأن كتابها كانوا ينتظرون حافزا أو مثيرا ما يغذي قريحتهم ويصقل مواهبهم ويدفعهم قدما نحو الأمام ونحو الإبداع في إطاره، وكان لهم ذلك فعلا ففي بداية التسعينات تزاحمت الأحداث، وكثرت التغيرات وتزايدت المتناقضات وتفاقمت الأوضاع، واستدعى كل ذلك أن يكتب عنه، ولن تكون ألوان التعبير وفنون الكتابة كلها قادرة على ذلك بقدر قدرة الرواية، وهذا ما يبرر ارتباط ظهور كثير من التجارب الروائية خاصة الشبابية منها بهذه الفترة من جهة، وبالمجتمع الجزائري المثقل بالتقاليد والعادات والمحن من جهة أخرى؛ حيث "نزعت الرواية العربية الجزائرية المعاصرة إلى رصد الواقع وملامسة أبرز إشكالاته التي أفرزها الاستقلال، وكانت لها تداعياتها المباشرة وغير المباشرة على واقع البلاد والعباد، هي تنجز ذلك بكثير من الجرأة في ملامسة الواقع السياسي للجزائر"[10]، بالرغم من كونها لم تكن قد تجاوزت مرحلة التأسيس بعد فتنازعها تياران تيار فرض الوجود وتأكيد الكينونة، وتيار الاتصال بالواقع والقدرة على تشخيص أزماته وطرح رؤاه وتطلعاته وإيجاد حل لمشكلاته الآنية، وهي في كلتا الحالتين تروم التميز والاختلاف، ولا نبالغ إذا قلنا إن الأزمة الوطنية وتجلياتها في الرواية الجزائرية والتي غذت فيما بعد من أهم تيماتها كانت من أهم عوامل مضيها قدما في مسار التطور وخوضها غمار التجريب.

على هذا النحو انتقلت الرواية بين محنة الكتابة-بسبب: تأخرها في الظهور مقارنة بفنون أدبية أخرى، وقلة الإقبال على الإبداع في إطارها في بادئ الأمر، وعدم استفائها للخصائص الفنية، ومواجهتها لإشكالية اصطلاحها وتباين الآراء حولها...-وزمن المحنة حينما استفحلت مظاهرها، واقتضت الضرورة أن تكون موضوعا في فن أدبي يتسع صدره لكثرة التغيرات وتنوع المستجدات ولم تجد لها في ذلك أفضل من الرواية.

لقد وجد الروائي الجزائري نفسه يواجه أمرين: أحدهما مظاهر الحداثة الروائية (التجريب على مستوى تقنيات الكتابة وآليات السرد)، والآخر ضرورة الإلمام بقضية الأزمة الوطنية وبمحنة الوطن الذي تعصف به رياح الإرهاب

والعنف والقتل وغيرها من المظاهر التي لم تستثن فردا ولا فئة وطالت الجميع وخاصة مثقفي المجتمع والروائي وباعتباره جزءا من هذا المجتمع نال حظه الوافر من هذا الصراع الدموي، فهل يمكن له بعد ذلك أن يبدع، وهل يولد من رحم المحنة إبداعا؟

عايش كثير من الروائيين الجزائريين المحنة بكل تفاصيلها، ومن لم يعش أحداثها سمع عن أخبار القتل والإبادة والاغتصاب من وسائل الاعلام والاتصال، أي أنه لم يكن بمنأى عنها، مما انعكس في نتاجهم الروائي لدرجة أصبح معها القارئ للروايات الجزائرية معتادا على تواجد العنف بين هاته الدفاتر، حيث خيم العنف على أجواء الروايات، وتسربت في الأماكن وفي علاقات الأشخاص، أصبح القارئ لا يرى إلا أجواء الموت الجسدي والروحي"[11]

ومثلما خيمت الأزمة على تنوع سياستها وتباين أطراف مقترفيها وتعدد آثارها النفسية والجسدية على الجزائر، فقد فرضت نفسها بإلحاح على مواضيع وتيمات المتن الروائي فجعلها الكثير من الروائيين موضوعا لمنجزاتهم، وأثبتوا أن الأزمة رحم خصبة تنتج إبداعا يؤرخ لمحنة الوطن، إبداعا ظل يكابد محنة الكتابة التي أصبحت ممارستها تعد جرأة قلما تستقيم للجميع، وإن استقامت فالعواقب كثيرا ما تكون وخيمة إما على الصعيد الشخصي من خلال اضطهاد مثقفي المجتمع وتعرض الكثير منهم وكذا عائلاتهم للتهديدات أحيانا والاغتيال أحيانا أخرى، وعلى الصعيد العملي من خلال الرقابة المفروضة على الكتابة الإبداعية، وإحكام الخناق على عمليات الطبع والنشر...

أ/ رواية المحنة الجزائرية بين سطوة الواقع المتردي وهشاشة المتخيل:

تنطلق رواية المحنة في الأدب الجزائري من الواقع الراهن دون أن تكون مطابقة له تطابقا كليا؛ حيث يتم فيها الانتقال من الواقع الخارجي إلى واقع الرواية عن طريق ميكانيزمات التفكيك وإعادة التركيب، تفكيك الواقع إلى قطع وأحداث حسب الضرورة الفنية وما يقتضيه البناء السردي وإعادة تركيبها حسبما يستوجبه السياق الذي تدرج فيه والمضامين الحكائية التي تنتمي إليها، وهذا ما يشكل رؤية إزاء العالم ووعيا بما يكتب من جهة ويثبت سطوة الراهن وهيمنته على أسئلة المتن الحكائي خاصة في ظل مستجداته السياسية وانعكاساتها على الصعيد الاجتماعي والثقافية والاقتصادي، والتي رغم كونها واقعية خالصة إلا أنها تستحوذ على الخيال الذي يركن إليها بكل بساطة وسلاسة حتى ينقل الراهن بحذافيره مع تفعيل التحليل والتركيب بين الفينة والأخرى، وبالتالي فإن الواقع يمتلك كل مقومات إنتاج الدلالة النصية فتتطابق دلالات الواقع مع دلالات الرواية تطابقا يؤدي إلى هشاشة المتخيل السردي، فالروائي لا يستطيع الهروب من الواقع حتى تحت طائل التجريب وضمن عباءة التحديث، فالروائي يكتب ما يراه وما عايشه أو حتى سمع عنه باعتباره ذاتا وجزءا من هذا الراهن وباعتبار الذات محور الوعي الحداثي المسيطر.

إن كثرة سيطرة الواقع وسطوة أحداثه على محكي المتن الروائي من شأنه المساس ببنية خطابه أحيانا، وأحيانا أخرى بقيمته الأدبية والفنية فيغرق في التقريرية والتسجيلية، أي إن "هذا التغليب من شأنه إسقاط النصوص في شرك كبير قد يخرج بها أصلا من الدائرة التي يصر عليها صاحبها [12]" ما يؤدي إلى هشاشة المتخيل في ظل إصرار الروائيين على اعتناق واقع مجتمعهم، غير أن هذا الاعتناق لا يبرر السقوط في التسجيلية إلا أنه يمنح مبررا كافيا لاستحضار الذاكرة التاريخية حتى لا تمحى وتظل راسخة محققة تراكما يلملم شتات الذاكرة الجمعية ويصقلها.

من الواضح أنه ثمة إجماع على ضرورة معالجة قضايا الواقع ومستجدات الوضع في الرواية بمشاركة الخيال الذي "يغير سطح الواقع وخطيته لكي يكتسب قيمة تدخله دائرة الفن"[13]، ولن تكتسب الرواية قيمتها الفنية ما لم يفعل التخييل وما لم تحمل رؤية للماضي وتطلع وآفاق المستقبل ، فالنصوص الروائية تصور محنة المجتمع –من خلال اللغة ومن خلال تبني المشاهد نفسها والاتكاء إلى معطيات متشابهة على مستوى الخيال–، وتعكس محنة الكتابة لتكون تجربة فريدة ومتميزة تجمع بين الداخل والخارج بين الذاتي والجمعي، بين الأنا والآخر...وكل ذلك يحيل إلى تغلغل الأزمة إلى أدق أعماق العمل الروائي الذي أصبح مسكونا بها مما يدل على عمقها واستفحالها فيه مشكلة بنيته المرجعية التي تشهد أحيانا شتاتا سرديا في عز محاولته الابتعاد عن مشاهد الأزمة وتطلعه الدائم إلى مخيال متحرر من معطيات الأزمة نجده متورطا فيها في شكل مقولات سردية

إن الرواية الجزائرية المعاصرة التي تعج بمشاهد الأزمة تعبر عن شيء لاشك في حداثيته، كما لاشك في الوعي العميق بالسياق التاريخي، والمجتمعان في بلورة العناصر المشكلة للمخيال والتي تنصهر مع مكتسبات الروائي ومع الوعي القائم ليعاد تشكيل عالم روائي يغري بالواقع، عالم ليس منه في كليته ولا ضرب من الخيال في مجمله، إنما هو مزيج بينهما، فالانتقال من الواقع وتأتي الرواية نتاج لهذا الاحتواء والتشارك وهذه التيمات– الأزمة– التي كادت أن تكون عنوانا فنيا لجيل بأكمله هو جيل التسعينات الذي أكسب الرواية حداثة في صلب اللغة حداثة تاريخية وحداثة إقليمية حداثة الخطاب وحداثة المضامين، على هذا النحو تربصت الأزمة تربصت بالنصوص الروائية الجزائرية وقد غذت متنها الحكائي بأحداث الواقع التي ظلت مسيطرة.

ب/ الحداثة ورواية المحنة/ الأزمة الجزائرية:

اعتزمت الرواية الجزائرية كغيرها من الأجناس الأدبية خوض غمار التجريب ومسايرة التحولات المستجدة على جميع الأصعدة، وانعكس ذلك على بنائها وتشكيلها السردي الذي جاء بنمط جديد أفرزته الثقافة السائدة، وبأشكال لا متناهية من التقنيات والفنيات التي ساعدت في بلورة اللعب الروائي في قربه من المتلقي من جهة، وانفتاحه على أفضية متنوعة وسياقات متعددة من جهة أخرى.

لقد أضحى المنجز الروائي الجزائري محملا بالتحولات والتنوعات الموضوعاتية، والتي انعكست قطعا على التشكيل الفني خاصة بعد انصهاره في تيار التجريب والبحث عن هوية النص، وعن أشكال تلائم وتلم بأزمات المجتمع المعاصر، وتكون جديرة بطرح رؤاه وتطلعاته وعلى نحو يمكنه من مساءلة الواقع ويكسبه تفرده المحقق من خلال التجريب المستمر الذي يهب الكتابة شرعيتها وتبريرها[14]، لأنه يخرج بالرواية عن القوالب التقليدية والمواضيع القارة "فلا تخضع في بنيتها لنظام مسبق يحكمها ولا إلى ذلك المنطق الخارجي الذي تحتكم إليه الأنماط التقليدية في الكتابة الروائية، وإنما تستمد نظامها من داخلها، وكذلك منطقها الخاص من خلال تكسير الميثاق السردي المتداول، والتخلص من نمط بنيتها"[15]

لقد مثلت الرواية الجزائرية المعاصرة في اتصالها بتحولات حقبة التسعينات من القرن العشرين مرجعية معرفية واجتماعية وسياسية نتيجة تناولها لقضايا الراهن، مما لا يترك مجالا للشك في تشكل الوعي العميق بالسياق التاريخي

ولا شك في مرجعيتها لأنها دخلت في حراك مستمر مع عجلة التجريب بتجديدها على مستوى تقنيات الكتابة والتشكيل السردي أو بتطرقها إلى ما يستجد من مواضيع وجعلها مادة دسمة مغذية لمتنها، وتعتبر فترة العشرية السوداء بكل مستجداتها من المواضيع التي استهوت أقلام الروائيين الجزائريين الذين كانوا قد بلغوا بنتاجاتهم الروائية مبلغا حسنا من حيث النضج الفني والصورة الجمالية المكتملة خاصة بعد السبعينيات،" فالعامل المنشط الذي دفع بالرواية الجزائرية إلى النضج الفني وأكسبها خصوصيتها، هو تلك التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذا الثقافية"[16]، لتنضم بذلك إلى الحراك الإبداعي المتسارع الذي عرفه الأدب الجزائري من خلال أقلام مبدعة غدت لامعة في سمائها، وشكلت منعطفا حاسما في تاريخ الأدب الجزائري عموما والفن الروائي منه خصوصا، ومن هذه الأسماء نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر : الطاهر وطار واسيني الأعرج، مرزاق بقطاش، عبد الملك مرتاض، أمين زاوي، محمد مفلاح، جيلالي خلاص، الحبيب السايح...

تعد رواية الأزمة الجزائرية من أهم مخلفات الحداثة لأن ملمح الأزمة أومقولتها كافية بالإضافة إلى القيمة الفنية والأدبية لجعلها جديرة بأن تلحق بالخطاب الروائي الحداثي، فرغم محدودية الأعمال من حيث الكم في بادئ الأزمة إلا أنها سرعان ما تزايدت وحققت تراكما كميا وكيفيا؛ وظلت وتيرة كتابة الأعمال الروائية المنوطة بالأزمة تتزايد حتى بعد انقضائها وقيمتها تتعاظم نظرا لأهمية خطابها الحكائي التاريخية والفنية والأدبية. ونظرا لكون الكتابة لدى الروائيين الجزائريين أصبحت ملاذا آمنا يلوذون إليه بالفرار من عنف وهمجية الأحداث علهم يجدون سبيلا لإصلاحها أو حتى التخفيف من وطأتها، لتعج نصوصهم بالراهن التراجيدي الذي انعكس بشكل خاص في رواية الأزمة التي تولدت من قلب الانشغال بقضايا الواقع وأسئلته ولم تكن بعيدة عنه؛ حيث حاورت مظاهر الأزمة بأساليب مختلفة متخذة منها سؤالا مركزيا لمتنها الحكائي فضلا عن توليد رؤى كتابية سردية مثيرة سنقف عند بعضها فيما يلي:

4/ محكيات رواية المحنة الجزائرية: (أسئلة المتن الحكائي في المنجز الروائي المحني الجزائري)

رصد الأدب الجزائري الذي واكب حقبة العشرية السوداء الأزمة الوطنية بكل حذافيرها، وبأدق تفاصيلها وبأصدق التعابير؛ فعلى "إثر دخول الجزائر دوامة العنف والإرهاب أصبح الخطاب الروائي...وكل ما يخص الحياة العامة يدور في فلك العشرية السوداء، التي انطلقت مند اندلا ع شرارة المعارضة السياسية للنظام القائم"[17]، وسرعان ما أصبحت الأزمة –التي عادت بالبلاد إلى وضع لا يقل سوءا عما عاشته إبان الحقبة الاستعمارية –منعرجا حاسما في مجال الإبداع الأدبي والروائي بالرغم من أن أيادي الإرهاب طالت "المفكرين وأصبحت الأقلام والاصوات الحرة مهددة في المقام الأول، ولقي نخبة من أعلام الفكر حتفهم إثر إصدار مقال صحفي أو رواية تدين فعل الإجرام في حق الأبرياء"[18] إلا أنها كانت في الآن ذاته حافزا للإبداع ومجالا للرد على هذه الانتهاكات؛ حيث ظهرت روايات جزائرية اختصت بمعالجة هذه الظاهرة وسلطت الضوء على كل الاختراقات وما ترتب عنها من مجريات فحكت وبصدق فني ما عاشه المواطن الجزائري في خطابات سردية لا تخلو من الإحالات الرمزية ومقاربات ذات أبعاد ومفاهيم إنسانية مؤمنة بالدور الذي يمكن أن يؤديه المبدع عموما والروائي خصوصا في تصوير الواقع الجزائري المثقل ومحاولة الإصلاح، فنتج عن ذلك تجارب روائية جديدة تميزت بالجدية في الطرح لأنها تعالج وعن كثب الصراعات

السياسية والأوضاع المزرية آنذاك، ولعل من أهم محكيات هذا الأدب تيمة الإرهاب، العنف، الموت، المأساوية، الاغتصاب، الفساد....

تتجلى كتابة الأزمة في الرواية الجزائرية المعاصرة من خلال العديد من النماذج الروائية التي أصبحت ركحا تتجسد فيه أحداث المأساة سواء عايش أصحابها الوضع الأليم أو سمعوا عنه، وارتأوا طرحها تصويرا وتعليقا، تأويلا واستنطاقا، فكانت الرواية صوت الروائي المسموع وسلاحه الفتاك المقاوم، لقد غدت رواية المحنة مقاومة من نوع آخر، مقاومة المثقف المبصر بحقائق الأمور، مقاومة تتجسد في خطاب سردي بطابع جمالي وفني وبمضامين واقعية وتعابير صادقة أمينة.

لقد نشر كثير من الروائيين أعمالهم التي تتخذ من الأزمة الوطنية موضوعا لها خلال ذات الحقبة، بيد أن أغلبهم تعسر عليهم ذلك إما بسبب قلة دور النشر والطباعة وتوقف الكثير منها تأثرا بالوضع الراهن، أو لتخوفهم من أيادي البطش التي كانت تستهدف مثقفي المجتمع، لكن الأكيد أن ما نشر خلال حقبة العشرية السوداء أو بعدها من أعمال روائية كان متنها السردي فواحا برائحة الموت والاغتيال والدم والمأساوية...في مجتمع لا يعرف فيه من يقتل من؟ وما دافع القتل؟ وإلى أين المآل؟ ...أسئلة كثيرة وغيرها سنحاول الوقوف عندها من خلال تسليط الضوء على بعض أسئلة المتن الروائي في رواية المحنة الجزائرية.

أ/ تجليات محكي المحنة في المتن الروائي الجزائري المعاصر (مقاربة فنية وقراءة توصيفية لنماذج روائية):

إذا أردنا استجلاء أسئلة المتن الحكائي المشكلة لرواية المحنة، والوقوف عند الميزات الفارقة لها لوجدنا أنها تتجه في عمومها صوب مواضيع أساسية تكاد تكون موحدة وقارة لدى جل الروائيين مع اختلاف في طرق الطرح والتصوير لأنها تمثل في عمومها موقفا إزاء المحنة لكن كل بمنظوره ورؤيته الخاصة، فرغم محاولات التعتيم وإخفاء سوء أوضاع البلاد والعباد في الجزائر خلال العشرية السوداء إلا أن نتاج الأدبي عموما والروائي منه خصوصا كان كفيلا برسم صورة صادقة وحية عن الوحشية والإجرامية المستتبة والتي بلغت مبلغا متأزم ما بعده تأزم، فعمت السوداوية وغلبت صور الحزن وسيطرت مشاعر الخوف والترقب، فلم يجد الروائي متنفسا له من كل ذلك إلا بالكتابة التي أصبحت "الوسيلة الحيدة بين يدي الكاتب لتجاوز محنته الذاتية والتخفيف من وطأة الجو العام الذي تعيشه فئات الشعب المختلفة؛ حيث تعلن عن قلقها وتنازع المقدس والمهيمن من أجل تحطيم الطابوهات"[19]، في وقت أصبحت الكتابة فيه عن الوطن وأوضاعه من المحظورات التي يمنع الخوض فيها من باب إخماد صوت القضية، لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد جعل الروائي الجزائري من قلمه سلاحا حينما كان أعزلا لا يملك سلاحا ولا يجيد حمله، ولا يتقن فنون القتال في ساحات الحرب بقدر إجادته لحرب المداد التي يتخذ فيها من الكتابة ملاذا وملجأ له يعصمه من هول الأوضاع ولا عاصم منها إلا بها، ويجعل منها ركنا ومرتعا للبوح والإفصاح، للتعريف والإسماع، للكشف والاستنهاض، لتعرية الراهن الدموي وبناء معادل تخييلي يتتبع الأزمة بوعي المساءلة دون أن يثقل كاهل المتن بالخطابات المكشوفة والأحداث التقريرية والطرح السطحي، وهذا ما تطاعنا به رواية: تيميمون للروائي رشيد بوجدرة -على سبيل التمثيل لا الحصر- التي عكست الوضع الخطير بكل حيثياته، خاصة أنها موقعة بتاريخ 1990، أي

غنها متزامنة مع الأزمة ونابعة من عمق مرارتها؛ حيث تنتقل فيها مشاعر الأسى والخوف والتوتر الناجمة عن الأحداث المأساوية التي انعكست آثارها النفسية على الذاكرة الجمعية ، ورسخت فيها ما حيا أفرادها يستذكرونها كلما استدعاها مؤثر ما، وإذا كان الروائي رشيد بوجدرة قد ارتأى الارتحال إلى الجنوب الجزائري هروبا من دموية المشاهد الإرهابية فإنه لم يكن بمنأى عنها؛ حيث كانت أخبار الموت والاغتيال والإبادة تبلغ مسمعه من وسائل الاعلام والاتصال، وأبى أن يلزم الصمت والحياد فما كان له أن أوجد سبيلا يعينه على تجسيد الأحداث الدامية والمشاهد المؤلمة بكل تفاصيلها في صور حية ناطقة وصادقة يشكلها باعتماد أسلوب تيار الوعي وذلك من خلال استدعائه لذكريات الماضي السعيدة ممتزجة بأحداث الحاضر المحزن والمرير.

وفي ذات الصدد نلفي رواية "ذاكرة الماء" لواسيني الأعرج التي تصف زمن المحنة وتفصل في شأن ما آلت إليه الأوضاع في الجزائر العالقة في براثن الدموية؛ حيث راح الروائي يصف هول الفاجعة ويصور عمق المأساة وكيف أصبح الموت والقتل أمرا عاديا في زمن ووطن تغيرت فيه القيم إن لم نقل انعدمت، وماتت الضمائر وجمدت العقول، وغلبت المصلحة الخاصة والأنانية، وتواصلت رحلة الموت ومسرحية عنف أبطالها الأبرياء من الأطفال والنساء والرجال العزل الذين لا ذنب لهم سوى أنهم ينتمون إلى وطن تعددت خيباته وتوالت من الاستعمار إلى الإرهاب ثم ماذا بعد؟ خيبات تصدر من جهات معلومة ومجهولة في الآن ذاته في ظل غياب المحاسبة، وتواصل التكتم حتى من السلطات المعنية الرسمية التي لها هي الأخرى اليد الطائلة في كل ذلك.

ومن الروايات التي تختزل كذلك الوضع الشائك والمعقد الذي عاشته الجزائر عقب الاستقلال وإبان العشرية السوداء رواية "سيدة المقام" "لواسيني الأعرج " التي كتبها والأزمة الوطنية تعرف أوجها؛ حيث تتكرر مشاهد الاغتيال وتتواتر أخبار الموت، ولم يكن الأمر لديه مقتصرا على النقل، بل تحول ليشكل الموضوع عنصرا بنائيا يضاهي أو يفوق باقي مستويات بناء النص المتحدة في تشكيل بنيتها السردية التي تختزل راهن المحنة وفق نظام متماسك الأجزاء يسائل الهم الوطني من منظور مغاير ويعطيه بعدا تاريخيا وأيديولوجيا وسياسيا؛ كما يزيل اللثام عن سوءة الراهن المفجع بلغة البوح والاستعراض مشكلة خريطة سردية لتجربة الشعب الجزائري وغيره ممن عانوا ومازالوا يعانون ويلات الإرهاب والاستدمار ويواجهون وزر الراهن وأثقاله.

ولعل المائز في طرح الروائيين الجزائريين لمحكي المأساة كذلك من هذا المنطلق هو أنه يكاد يكون لديهم إجماع على "إدانة السلطة في تغذية العنف من خلال سياستها الاقتصادية والتربوية والاجتماعية، ونتيجة لفشل الشروع الاشتراكي[20]، أي إنه لهم وعي تام بحقيقة ما يجري بعيدا عن المغالطات التي تحاول التكتم وإخفاء الحقائق أو حتى عرضها بشكل زائف مخالف لما هو كائن.

ومن الروائيين كذلك الذين رصدوا وبحق ما عانته الجزائر إبان العشرية السوداء "الطاهر وطار" من خلال رواية "الشمعة والدهاليز"، فلم يتوان عن مواجهة وزر الراهن المأساوي وتكبد أثقاله سرديا بداية من فاتحة عتباته ممثلة في العنوان إلى أصغر تفصيل مشكل لمتنه، "فثمة تطابق فني وفكري بين العنوان الروائي والمتن الروائي الذي وضعه المؤلف الطاهر وطار، فالشمعة هي العنصر الوضاء الذي ينير الدرب للإنسان ويزيح عنه كابوس الظلام

ويبعث التفاؤل في نفسية المتلقي، أما الدهليز فهو كلمة فارسية وتعني المسلك الضيق الطويل المظلم- جمع دهاليز، وقد استخدمه الروائي للتعبير عن شدة الظلام وكثرة الدروب الملتوية وبعث الرهبة والخوف والرعب في نفسية الإنسان"[21]، وبين ظلام الإرهاب وبطشه لا بد أن يسطع نور الخلاص بانتهاء كابوس الظلم والظلام.

أما روايته المعنونة ب: "الزلزال" فهي من أهم روايات التي شكلت المحنة موضوعها الأساسي؛ حيث عكست هي الأخرى فاجعة الفترة، ونقلت المجازر المقترفة من قبل الجماعات الإرهابية، وكشفت توجهات الجهات المتطرفة دينيا، وعملت على تعرية خلخلة القيم واندثار المبادئ وتغير الحياة تغيرا جذريا هو أشبه ما يكون بالزلزال بكل مخلفاته.

بينما تطالعنا رواية أخرى لذات الروائي والمسماة بـ "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" بكل ما يدور من أحداث دامية، وأفكار متناقضة، وتوجهات متباينة، ومعتقدات دينية متطرفة، فتغدو بذلك وثيقة ناطقة وشهادة حية صادقة يعتد بها في كل ما يتعلق بالعشرية السوداء وأحداثها لأنها تختزل المشاهد الدموية العنيفة، وتنقلنا إلى أجواء الفجيعة المرعبة فنتحول من كوننا نقرأ عنها إلى كوننا نعايشها وتجري على مرأى أعيننا.

هذه العناية بتصوير المحنة الوطنية وتحولها لتكون العمود الفقري للرواية الجزائرية على مستوى مضامينها نجدها كذلك عند الروائي عز الدين جلاوجي؛ حيث تأتي رواية "سرادق الحلم والفجيعة" هي الأخرى لتعرية الراهن حاملة لصرخة مملوءة بالمرارة تعكس عظمة وهول الأوضاع، كما تنم عن وعي أدبي وفني عميق يهدف إلى تشخيص الأحداث وتقديمها في قالب فني مكتمل البناء مترابط الأجزاء يعكس عمق التجربة وجديتها وجودتها، فقد اختار الروائي أن لا تكون روايته تسجيلا للأحداث فحسب ما يجعلها أقرب للرواية التاريخية، بل جعلها سبيلا لكشف الحقائق واستكناه خفايا الأوضاع وإيجاد متنفس لها باعتماد لغة شاعرية وتفعيل آليات الكتابة فنية واعتماد سبل تحقيق الجمالية، مما يبعدها عن كل ما من شأنه أن ينقص من قيمتها الفنية كالنقل الحرفي والطرح السطحي مثلا.

وغير بعيد عن طرح هذه الرواية لموضوع المحنة الوطنية نجد رواية أخرى لذات الروائي-عز الدين جلاوجي- ممثلة في رواية "رأس المحنة" ولا أدل على إحاطتها بموضوع الأزمة الوطنية من عنوانها الذي يحمل إحالة صريحة ومباشرة إلى مضمونها المرتبط بهده التيمة أو المتحور أساسا وفي معظمه حولها، فالعنوان بناء إيحائي يختزل النص مبنى ومعنى، وإذا كان يتخذ من المحنة لفظا مفتاحيا فيه فإنه وبالضرورة يحمل حمولات دلالية مكثفة وغائرة في عمق الهم الوطني ومطوقة للراهن المأساوي المثقل بهموم الوطن ومحنه.

إن المميز لهذه الرواية عن سابقاتها أنها تقدم رؤية شاملة وكلية لموضوع المحنة، وتعرضه بأسلوب فني ذكي وشيق ومكثف ينفتح على تحولات الحياة الجزائرية في فترة حرجة من تاريخها دون أن ينزاح خلف النقل السطحي والنمطي، وفي مقابل ذلك فهي تشترك مع روايات أخرى في كونها جاءت استجابة للظروف الطارئة وتلبية للدعوات الصارخة لجمع شتات الوطن الممزق، ومداواة الجرح الغائر بتوحيد الهم الوطني وجعله موضوعا لكل نتاج إبداعي، وهدفا لكل طرح بناء، وسقفا لكل إنجاز وتطلع، تغليبا للمصلحة العامة ومراعاة لمقتضى الحال.

من خلال ما سبق نخلص للقول أن المأساة الوطنية فرضت تيمات وأسئلة حكائية، واستوجبت تقنيات وأساليب سردية، وتطلبت آليات وأدوات فنية وجمالية، وبعث مواهب شبابية لم يكن لها سابق عهد بالإبداع الروائي، ودعمت تجارب أخرى لتحقق تراكما كميا ونوعيا في رصيدها الإبداعي الروائي، وقد اشتركت جميعها في التنديد بالوضع وإدانة المتسببين فيه، فعلى مدار جل روايات التسعينات تربع سيل الآهات، وطلقات الموت وزفرات الغدر، وممارسات التنكيل التي وقعت في غفلة من التاريخ واستهدفت كل الفئات ، ومست كل الشرائح، وشكلت سياقات الحياة الواقعية التي تحولت إلى مشرب عكر ينهل منه مادة حكائية كدر انعكست اسئلتها لتشكل تيمات الخطاب الروائي الجزائري بكل أنساقه ومشاهده وصوره الجريئة، وألفاظه ومعانيه الدلالية العميقة عمق وفجاعة الوضع.

ب/ مميزات وخصائص رواية المحنة/ الأزمة الوطنية في الخطاب الروائي الجزائري:

من خلال تتبع تمظهرات الأزمة الوطنية في الرواية الجزائرية المعاصرة يمكن أن نذكر أهم الخصائص الفنية والملامح الجمالية التي طبعتها والممثلة فيما يلي:

-متعددة المضامين متنوعة التيمات تعمل من خلالها على إعادة النظر في العديد من القضايا والأيديولوجيات المتجذرة في الفكر والثقافة الجزائرية

- تتعالق الرواية بالواقع الاجتماعي وتكتبه بقلق الذات، فتقدم عالما مأساويا وواقعا مثقلا ومستقبلا برؤية سوداوية أحيانا وضبابية أحيانا أخرى.

-الارتماء بين أحضان الذاكرة والعودة إلى أحداث الماضي التليد هروبا من مرارة الحاضر وقسوته.

-تتفنن في انتقاء شخصياتها وغالبا ما تمنح دور البطولة للمثقف منها الذي لا يحظى بما يليق به من حياة كريمة وكثيرا ما يكون كبش الفداء.

-التطلع إلى الانعتاق من الواقع المأساوي واتخاذ الكتاب ملاذا ومهربا مما يعكس توافقا بين الوعي الذاتي والاجتماعي.

-التمرد على تقنيات الكتابة الروائية والسير في مسلك التجريب من خلال كسر خطية السرد وإباحة تداخل الخطابات والأجناس الأدبية وإلغاء الحدود بينها وفسح المجال للتلاقح والإفادة من بعضها البعض.

-الانفتاح على التعدد اللغوي واعتماد لغة شاعرية حميمية أحيانا ومأساوية مفجعة أحيانا أخرى محملة بشحنات القلق والتوجع والتعصب.

-عنيت رواية المحنة بكل ما هو حيني وظرفي من اضطرابات ومشاكل وتصدعات وصراعات فنقلت التجربة الواقعية إلى تجربة إبداعية روائية فنية لم تخل من التسجيلية والتقريرية المقيتة.

إلى جانب ما ذكر من خصائص طبعت رواية الأزمة وميزتها نضيف خصائص أخرى أوردها الباحث "سفيان زدادقة" وتتمثل في:[22]

-طابعها الاستعجالي الذي كثيرا ما أصابها بالسطحية على مستوى المعالجة الفنية أو الرؤية الفكرية.

-النبرة الخطابية المباشرة وإعلانها المذهبي لذاتها، مما جعل لهجتها تقريرية تحاصر القارئ وتقوده نحو فهم واحد.

-غياب الاهتمام بجماليات النص والسعي الدائب نحو الوضوح ومركزية المعنى.

-نموذجية البطل ومثاليته، مع الوقوع أحيانا في التشابه على مستوى البطاقات الدلالية للشخصيات.

-خطية الزمن في الرواية وعمودية السرد مع التوظيف البسيط للمفارقات السردية حفاظا على الصيغة المباشرة للخطاب الحكائي.

-حصر الصراع في النص بين ثلاث شخصيات ذات طابع نمطي: رجل السلطة، المثقف، الكلاسيكي والمتدين الأصولي السلفي.

-الميل نحو التبسيط والتجزئة والتعميم لدرجة السطحية أحيانا في أحكام القيمة والظروف العامة.

-غياب المساحات الرمادية في إيديولوجيا النص، وهذا الغياب هو لصيق الكتابة المتورطة غير المحايدة... الكتابة الآنية التي تعالج موضوعا لم يتبلور أصلا بعد، حيث إن أفضل كتابة ممكنة عن الأزمة هي الكتابة التي تتم بعد الأزمة وليس من داخلها أو أثناءها.

الخاتمة:

حاولنا من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على موضوع هام من مواضيع الرواية الجزائرية المعاصرة والتي استحوذت على متنه الحكائي فسيمت نسبة إليه برواية المحنة، والمرتبطة أساسا بمرحلة هامة وحرجة من تاريخ الجزائر المعاصر، وهي مرحلة العشرية السوداء أو حقبة المحنة الوطنية، والتي دفعت وأغرت أو أجبرت الكتاب الجزائريين على خوض غمارها والكتابة عنها وضمنها، وقد اتخذتها دراستنا موضوعا لها وخلصت إلى النتائج التالية:

- لم تكن بعض أحداث العشرية السوداء لتغري كتاب الرواية الجزائرية بقدر ما كانت تجبرهم على ذلك في كثير من الأحيان، مما نحى بالمنجز الروائي صوب التأريخ لأن الكتابة تحولت آنذاك إلى مجال آمن أكثر مواءمة للتعبير عن الواقع المعيش إذ تصرح بما لا يقوله عالم السياسة وتذيع ما لم يقله عالم الاجتماع، وتنشر ما يخفيه عالم الاقتصاد ويحجبه"[23]، هكذا أصبحت أحداث الراهن الجزائري مادة دسمة وغنية غذت معظم الأعمال الروائية آنذاك، بيد أن بعضها أخذتها على عجل وبشكل حرفي تقريري حال دون بناء معادل تخيلي يليق بها ويعطيها دفعا للأمام، ولا مراعاة ما يتطلبه الفن الروائي من توظيف للخيال والسرد...

إن صعوبة التحلي بالموضوعية وصفاء الرؤية في كتابة الرواية التي تواكب مرحلة المأساة الوطنية تنعكس على صعوبة مقاربتها كذلك، وربما تفوقها بكثير، لأنها كانت ولا تزال مغامرة جريئة تتحول في كثير من الأحيان إلى نقل لأحداثها الواقعية وللهواجس التي استبدت بها دون مساءلة للظاهرة في مجملها،كل هذا حال دون مقاربة رواية وأدب المحنة عموما على النحو اللازم والمطلوب وبشكل شمولي رغم الاهتمام الكبير الذي واكبها متداركا الوضع مسايرا في ذلك الاهتمام الصحفي متجاوزا إياه، وقد تمكن التوجه النقدي الأكاديمي من العناية بالنصوص الأدبية الصادرة آنذاك وبكتابها الذين تزامنت تجاربهم الروائية الأولى مع مرحلة المأساة الوطنية التي صوروها في قالب فني

إبداعي هيمن عليه الصراع والعنف والموت... وغيرها من المظاهر التي تعكس الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر وترصد آثارها التي لانزال نلمسها إلى يومنا هذا.

لقد عكست رواية المحنة الأزمة الوطنية بصدق فني نابع من تجربة الروائي الجزائري وما عاناه هو الآخر بوصفه فردا من المجتمع من جهة وبوصفه يمثل الفئة المثقفة المستهدفة والملقاة على عاتقها مسؤولية مضاعفة من جهة أخرى، معاناة ومسؤولية تشدد الخناق على ذاته وعلى إبداعه الذي تفجر بروائع روائية متميزة على مستوى البناء الفني والجمالي رغم فظاعة مضامينها وهول تيماتها؛ حيث كانت الكتابة الروائية ملاذه ومهربه ومتنفسه استعاد بها ثقته بنفسه وبجدية وجدوى ما يبدعه، كما أكسبته جرأة في تعرية الواقع المرير المطعم بالتيه والضياع، وقول –ربما– ما عجز عنه الكثيرون رغم ما غلب عليها من طابع تسجيلي تقريري هو أقرب ما يكون إلى التاريخ والتأريخ إلى الصراخ والمناجاة إلى البوح والشكوى إلى التنديد والتنكيل، إلى القتل الرمزي المشروع ضد مقترفي الجرائم الشنعاء في حق البلاد والبلاد، كل هذا اجتمع في وثيقة إبداعية مؤسسة لمرحلة مأساوية هي رواية المحنة الجزائرية ومحنة الرواية.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم بن موسى فريدة، 2012، زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية –دراسة نقدية–، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط 1.
- أحلام العلمي، هيئات الأنساق الثقافية داخل المنجز الروائي الجزائري النسوي رواية "اكتشاف الشهوة"، "لخضر"، "أدين بكل شيء للنسيان "، أنموذجا، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 20، العدد 1، ديسمبر 2024.
- بلعلى آمنة، 2000، المتخيل في الرواية الجزائرية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
- بوشوشة بن جمعة، 1999، اتجاهات الرواية في المغرب، دار سحر، تونس.
- جمعة مصاص، الأنا وجراحات الذاكرة في الرواية الجزائرية المعاصرة "رواية أنا وحاييم" للحبيب السايح أنموذجا، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 19، العدد 1، ديسمبر 2023.
- راشدي حسان راشدي، 2003، ظاهرة الرواية الجديدة في الجزائر، مسائلات الواقع والكتابة، رواية فوضى الحواس، ع 3، مجلة الآداب –قسنطينة.
- زدادقة سفيان، 19 جانفي 2004، من فانتزيا الواقع إلى فانتزيا الكتابة، الملحق الأدبي، اليوم الأدبي، ع 118.
- سليمان نبيل، 1996، سيرة القارئ، دار الحوار، سوريا، ط 1.
- شطاح عبد الله، 2014، مدارات الرعب وفضاء العنف في رواية العشرية السوداء، مطبعة ألفا، الجزائر.
- صيداوي رفيف، 2003، النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية:1975–1995، الفارابي، الجزائر، لبنان، ط 1.
- كسية ملاح ميساء، جانفي 2014، أيديولوجية رواية المحنة الجزائرية بين 1992–2002، مجلة اللغة العربية وآدابها، ع 4، كلية الآداب واللغات، جامعة البليدة 2..

- لحمر فيصل، 2010-2011، حداثة الخطاب في الرواية الجزائرية المعاصرة، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه علوم، جامعة قسنطينة.
- مباركية عبد الناصر، 2000، الصراع بين الحداثة والتقاليد في رواية الشمعة والدهاليز -طاهر وطار-، وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر.
- المديني أحمد، 1981، الخطاب الروائي العربي-الخطاب، المستحيل-، مجلة الطريق، ع 3، أوت-عدد خاص في الرواية العربية البناء الفني وحركة الواقع الاجتماعي، 1981.
- مفتي بشير، 30 ديسمبر 2004، حوار أجراه حميد عبد القادر، الملحق الثقافي، جريدة الخبر.
- نسيمة علوي، العتبات النصية وعلاقتها بالتحولات في الرواية الجزائرية، مجلة منتدى الأستاذ، العدد 20، جوان 2017.
- هيمة عبد الحميد، المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية- قراءة في نماذج من الرواية الجزائرية الجديدة-، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر- بسكرة، العدد 29.
- ولسن كولن، 1986، فن الرواية، تر/ محمد درويش، دار المأمون، العراق.
- M DAOU Le roman 2002 algèrien de langue arabe- lecture critique ،ed : CRAASC 2002-

الهوامش والإحالات:

[1]لحمر فيصل، 2010-2011، حداثة الخطاب في الرواية الجزائرية المعاصرة، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه علوم، جامعة قسنطينة، ص103.

[2]كسية ملاح ميساء، جانفي 2014، أيديولوجية رواية المحنة الجزائرية بين 1992-2002، مجلة اللغة العربية وآدابها، ع4، كلية الآداب واللغات، جامعة البليدة 2، ص2.

[3]مفتي بشير، 30 ديسمبر2004، حوار أجراه حميد عبد القادر، الملحق الثقافي، جريدة الخبر.

[4] إبراهيم بن موسى فريدة، 2012، زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية -دراسة نقدية-، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة 1، ص11

[5]كولن ولسن، 1986، فن الرواية، تر/ محمد درويش، دار المأمون، العراق، ص104

[6] صيداوي رفيق، 2003، النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية، 1975-199(، الفارابي، الجزائر، لبنان، ط3، ص20-21.

[7]شطاح عبد الله، 2014، مدارات الرعب وفضاء العنف في رواية العشرية السوداء، مطبعة ألفا، الجزائر، ص142.

[8]كيسة ملاح ميساء، جانفي2014، أيديولوجية رواية المحنة الجزائرية بين 1992-2002، ص2.

[9]ينظر هيمة عبد الحميد، المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية- قراءة في نماذج من الرواية الجزائرية الجديدة-، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر- بسكرة، العدد 29

[10]-جمعة مصاص، الأنا وجراحات الذاكرة في الرواية الجزائرية المعاصرة "رواية أنا وحاييم" للحبيب السايح أنموذجا، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 19، العدد1، ديسمبر2023، ص114.

[11]-أحلام العلمي، هيئات الأنساق الثقافية داخل المنجز الروائي الجزائري النسوي رواية "اكتشاف الشهوة"، "لخضر"، "أدين بكل شيء للنسيان "، أنموذجا، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 20، العدد1، ديسمبر2024، ص89.

[12]سليمان نبيل، 1996، سيرة القارئ، دار الحوار، سوريا، ط1، ص246

[13]صيداوي رفيق، 2003، النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية:1975-1995، الفارابي، الجزائر، لبنان، ط1، ص151.

[14]المديني أحمد، 1981، الخطاب الروائي العربي-الخطاب، المستحيل-، مجلة الطريق، ع3، أوت-عدد خاص في الرواية العربية البناء الفني وحركة الواقع الاجتماعي،

[15]بوشوشة بن جمعة، 1999، اتجاهات الرواية في المغرب، دار سحر، تونس، ص20.

[16]راشدي حسان، 2003، ظاهرة الرواية الجديدة في الجزائر، مسائلات الواقع والكتابة، رواية فوضى الحواس، ع3، مجلة الآداب –قسنطينة، ص234.

[17]– نسيمة علوي، العتبات النصية وعلاقتها بالتحولات في الرواية الجزائرية، مجلة منتدى الأستاذ، العدد 20، جوان2017، ص138.

[18]– المرجع نفسه، ص ن.

[19]M DAOUD Le roman: algérien de langue arabe- lecture critique ، Ed : CRAASC 2002-P 116

[20]بلعلى آمنة، 2000، المتخيل في الرواية الجزائرية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ص78.

[21]مباركية، عبد الناصر، 2000، الصراع بين الحداثة والتقاليد في رواية الشمعة والدهاليز –طاهر وطار–، وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر، ص241.

[22]زدادقة سفيان، 19جانفي2004، من فانتزيا الواقع إلى فانتزيا الكتابة، الملحق الأدبي، اليوم الأدبي، ع118.

[23]المرجع السابق، ص144.